

مذاهب الفلسفة

٢- المذهب الطبيعي*

للأستاذ زكي نجيب محمود

- إذن فالجماد والحى شيان مختلفان أشد ما يكون الاختلاف ، وليس من اليسير أن يسيغ العقل أنهما جانبان لحقيقة واحدة هي الطبيعة ، وأنهما يسيران وفق قانون واحد هو قانون الطبيعة ؛ ولعل أعقد المشاكل التي يصادفها المذهب الطبيعي هي هذه : كيف أنتج الجماد عالم الأحياء وبين موات الجماد وحياة الأحياء ما رأينا من فروق ؟ هنا تقدمت نظرية التطور لتأخذ بيد المذهب الطبيعي فننجز به من هذا المأزق السير بأن تفسر لنا كيف نشأت الحياة وكيف نشأ العقل
- أما دارون فلم يستطع ذلك ، أو هو على الأصح لم يحاوله ، فقد سلم بوجود الحياة تسليماً وفرضه فرضاً ، ثم بدأ سيره من هذه النقطة بأن أخذ يبحث فيما يطراً على الحياة من تغير وتحويل ، ومعنى ذلك أن دارون قد فرض أن الكائن الحى قد تسلسل من كائن حى قبله ، وهذا من كائن حى قبله ، وهكذا دواليك . فهو على ذلك لم يزد في بحثه على أن تتبع حلقات الاتصال بين أنواع الأحياء أى بين الكائنات السقلى والكائنات العليا ، وإذن فدارون لم يقدم في نظريته حلاً للمشكلة الأولى : مشكلة المذهب الطبيعي ، وهي ، كيف نشأت الحياة من الجماد ، وكيف نبت العقل مما لا عقل فيه ؟

- ثم جاء في أثره هربرت سبنسر وتناول بعقله الجبار نظرية دارون فأكمل نقصها وأتم مطلبها . فأقام الحججة على أن الحياة إن هي إلا ضرب من ضروب المزيج الكيميائى بين أجزاء المادة ، فإذا كنا نبنى الوصول الى الحلقة التي تصل الحياة بالجماد ، فاعلينا إلا أن نلتصق علماء الكيمياء ... ولقد رأى سبنسر مما وصلت اليه العلوم في عهده أنه ليس بين قطع الجماد وكائنات الأحياء تلك

(*) يحتاج بعض ذوى العقول الضعيفة أن تنبه الى أن هذه الفصول إنما قصدت لدراسة وحدها ، وهدى أنها لا تميز لكتابتها عن رأى خاص

الخلافة القديمة . ومن المرجح أن اطلال الزهراء بقيت بعد سقوط قرطبة في يد النصارى عصرأ يصعب تحديده ؛ غير أن قرطبة فقدت في ظل سادتها الجدد صبتها ومعالها الاسلامية بسرعة ؛ ولم يبق اليوم من آثارها ومآهدها الاسلامية الشهيرة سوى مسجد الباهر القى حوله الأسباب منذ افتتاحها الى كنيسة جامعة ؛ وقد شوهدت بذلك معالها ومناظره الأولى ، ولكنه ما زال يحتفظ بكثير من أروقته وأبهائه القديمة ، وما زال يلفت نظر الزائر المتجول بمسحته العربية والاسلامية ، بل ما زال يعرف حتى اليوم بكلمة « مراكينا » Mesquita أى المسجد ؛ ولم يبق غير المسجد من مآهد قرطبة وأبنيتها الفخمة القديمة سوى انقاض بالية . أما الزهراء ، فقد اختفت معالها منذ عصر بعيد ، ولم يبق منها اليوم أثر ما . بيد أن موقعها ما زال يعرف بالتقريب ، في شمال غربى قرطبة ، ويطلق عليه اليوم « قرطبة القديمة » Cordoba la vieja ؛ ويقوم الى جوار موقعها القديم الى اليوم دير « سان جيرونيمو » ويقال إنه بنى بانقاض قصر الزهراء (١) وقد عثت الميئات الأثرية الأسبانية في العهد الأخير باجراء الحفر في تلك النقطة محاولة استكشاف مواقع الزهراء ومعالها الحقيقية (٢) وقد كان لهذا المصير المحزن الذى ألمحدرت اليه مدينة الناصر بسرعة مؤسفة شبيهة بين مصائر القواعد اللوكية الاسلامية ؛ ذلك هو مصير مدينة القطنع اللوكية التي أنشأها ابن طولون الى جانب القسطنطينية ، وأسبغ عليها ولده سنارويه آيات رائمة من الفخامة والبهاء ، ثم شاء القدر أن تنهار دعائم الدولة الطولونية ، وأن تحس القطنع بين يوم وليلة ، بمد حياة قصيرة لم تجاوز ثلث قرن ؛ فكانت مأساة مؤثرة تشبهها مأساة الزهراء من وجوه كثيرة مع فارق في العظمة والترلة السلطانية ، وفي ظروف العصر ، وصورف الأحداث

محمد عبد الله عثمان

Ency. de l'Islam-Cordone (١)

(٢) راجع في تلريخ الزهراء وأخبارها وأوصالها : فتح الطب ج ١ ص ٢٤٥ — ٢٤٧ و ٢٦٤ و ٢٦٦ و ٢٦٩ و ٢٩٢ و ٢٩٤ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ ؛ والبيان للفرب ج ٢ ص ٢٤٦ — ٢٤٨ ؛ وللكوكى وللمالك لابن حوقل — ص ٧٨ و ٧٩ ، وأقوت في معجم البلدان ج ٤ ص ٤٢١ (كلمة الزهراء) ؛ وراجع أيضاً Dozy : Ibid, II, P. 174 Murphy : Mohamedan Empire in Spain P. 168—172

ينكرون أشد انكار أن يكون وراءها أية حقيقة أخرى ، وببارة موجزة واضحة : هم ينكرون الدين وكل ما يتصل بالعقيدة الدينية من حقائق لا تمت إلى ظواهر الطبيعة بسبب من الأسباب . فان ساء لهم قائلًا : إن كانت العقائد ضلالاً في ضلال فما الذي حدا بالإنسان بأدى ذى بدء أن ينظر إلى العالم بمنظار روى ، ومن أين جاء هذا الاتجاه في التفكير ؟ أجابوك إنه خطأ بشرى ككل ما يقع فيه الإنسان من أخطاء ، ولكنه في رأيهم خطأ واجب مفيد لم يكن للإنسانية عنه بد في حياتها الأولى

إنما ينشد الإنسان الحق في الرأي لا لشيء إلا أن تكون الحقيقة عوناً له في طريق الحياة ؛ إذ الفكرة الصائبة توضح السبل وتيسر الطريق ، وتعمل على استمرار اليقظة واجتناب الخطر ؛ وعلى تقيضها الفكرة الخاطئة ، فهي مضلة للإنسان مبعثرة لجهوده في غير ما طائل ، بل إنها قد تضره وتؤذيه وتؤدي به إلى الموت . ولما كانت العقائد الدينية مجموعة آراء نسجها الإنسان ووشج بينها ، كان لنا أن نقول إنه كلما بمدت العقيدة عن الصواب كانت أدنى إلى إبناء الإنسان والعمل على تدهوره ، ولكن مما يهون الأمر أن الفكرة الخاطئة لا يستفحل خطرهما وأذاها إلا إذا مست حياة الإنسان العمالية فأثرت فيها أثراً مباشراً ، فان لم تكن كذلك كانت قليلة الخطر أو عديمة ؛ فلما كان الإنسان مثلاً في المصور القديمة لا يتمدى بأسفاره ورحلاته نطاقاً محدوداً ضيقاً ، لم تكن لتؤذيه فكرة أن الأرض مسطحة على خطها ، فخطأ والصواب في مثل هذه الحالة سواء ، بل كثيراً ما يكون الخطأ أنفع للإنسان من الرأي الصحيح كأن توم المشق على الموت بأنه قوى سليم

وعلى هذا النحو كانت قائدة النظرة الروحية في مراحل الإنسانية الأولى ، إذ كانت العقيدة أقوى حافز يدفعه إلى العمل والنشاط حينما كان الإنسان أشد ما يكون حاجة إلى التشجيع . فقد كان أول أسره بهم مع أوابد القفر وضواى التاب ، يعيش لساعته عيش الحاجة والضرورة ، فلما أراد أن يعلو على مستوى الحيوان وأن يتخذ لنفسه في الحياة منزلة رفيعة ومكانة ممتازة بين الأحياء ، مستيناً بما أوتي من عقل وخيال ، رأى أن الوسيلة الأولى هي أن يحطم أغلال الضرورة ما استطاعت حيلته ، وأن يوسع من

الشقة الفسيحة التي توهمها الألوان ، فالفرق كل الفرق بينهما اختلاف في درجة التقيد والتركيب . أما العقل فضرب من ضروب الطاقة كالحرارة والكهرباء والضوء

ولكن ما بالنا نركب رءوسنا فلا يرضينا إلا أن يقوم الدليل على أن العقل قد نشأ من الجمد نشأة تدريجية معقولة وإلا كان الأمر في أعيننا لغزاً منلقاً ؟ فلم لا تكون الحياة قد خرجت من الجمد خروجاً فجائياً مباغتاً بغير مقدمة ولا تمهيد ؟ قلب النظر في جوانب الكون ترآفاً من الأشياء التي جاءت إلى الوجود من غير مقدمة منطقية ؛ فخذ طعم الملح مثلاً وسائل نفسك من أين جاء ؟ هو لم يكن في عناصر الملح الأولى التي من ضربها نشأ الملح ، وإذن فقد جاء هذا الطعم الذي نعرفه للملح طارئاً مباغتاً . فلماذا لا تكون الحياة ولا يكون العقل قد نشأ كلاهما على هذا النحو ، فيكون لهما من الخصائص ما ليس لمتصرهما الأول ؛ أعنى ما ليس في مادة الطبيعة الجامدة . . . تلك حجة جديدة يؤيد بها أنصار للذهب الطبيعي رأيهم

ولكن دعك بمد هذا كله من تطور العقل سواء أكان تدريجياً أم مفاجئاً ، وحسبنا أن نأخذ كما هو بين أيدينا . فهل يستطيع الذهب الطبيعي أن يفسر كيف يعمل العقل ؟ كيف يمكن لقطعة من اللحم أو الشحم أن تخلق فكراً وتبدع خيالاً كما نرى ؟ إنه ان استطاع أن يعمل ذلك هان عليه بمد ذلك كل شيء ، ولهذا تراه اليوم يجاهد جهاد الأبطال في ميدان علم النفس لعله واجد عنده نصيراً وظهيراً ؛ وما هو ذا علم النفس منذ منتصف القرن الماضي ينحو في بحثه نحواً فيسيولوجياً ، أى أنه يعتبر العقل وظيفة للمخ لا أكثر ولا أقل ، فهو لتلك خاضع كبقية أعضاء الجسم لقوانين الملة والممول . وكثير بين علماء اليوم من يزعم أن كل ظواهر الإنسان الروحية والعقلية لا تمدو أن تكون نتائج كيميائية لبعض إفرازات الجسم . وليس بعيداً عن هؤلاء أن يحين الحين الذي يسيطر فيه الإنسان على قواه العقلية ، بأن يتتكر طاماً مميناً يفرز إفرازاً خاصاً يرفع القدم الوضع إلى مرتبة الفلاسفة والحكماء ١١

المرزب الطبيعي والريح :

لما كان أنصار هذا الذهب يتشبثون بالطبيعة وحدها ، فهم

الأحداث بقوى الآلهة ؛ والثانية ، وهي المرحلة الغيبية حيث كان الانسان يطل حوادث الكون بمجموعة من القوى ، فيعزو الحياة إلى القوة الحيوية ، والنار إلى الحرارة ، وسقوط الأجسام إلى قوة نقل الأجسام ؛ والمرحلة الثالثة هي المرحلة الإيجابية التي فيها يفسر الناس ظواهر الوجود بأسباب مباشرة تسبق حدوث الظاهرة الميئة ، فاذا وقعت الملة جاء في أثرها العلول تبعاً لقانون معروف ؛ وهذه المرحلة كما يقول كونت هي أسنى مراحل العقل البشري ، وهي هي المرحلة التي يجتازها الانسانية اليوم . وهكذا يدعو أصحاب المذهب الطبيعي إلى نبذ العقائد على الرغم من رسوخ قدسها في النفس وتأصل جذورها في القلوب ، ويهيبون بالناس أن يواجهوا حقائق الكون الواقعة في شجاعة وإقدام

والعجيب أن هذا المذهب الطبيعي لم يدم في كل عصر من عصور الفكر ظهيرا وتنعيرا ، فقد وجد بين فلاسفة الاغريق من يقيمه ويؤيده كديمقريطس ؛ ووفق في مستهل العصر الحديث الى زجل مثل « توماس هوز » التي أخذ على نفسه أن يفسر كل شيء في الوجود على أنه مادة متحركة ليس إلا ، فتناول العقل نفسه وقال إنه نتيجة لجملة الأحاسيس التي تنفذ الينا خلال الحواس الخمس ، ولما كان هذا الاحساس أثراً مباشراً لتحريك الأعصاب ، وهذه نتيجة لازمة لما يقع بين الأشياء المادية من حركة ، كان العقل بكل ما فيه من ذاكرة وخيال وما إليها ضرباً من ضروب الحركة المادية لا أكثر ولا أقل . هذا وإن ديكرات الذي يعتبر مؤسس الفلسفة الحديثة وواضع أصولها قد نادى بأن الكائن الحي لا يزيد على آلة صماء عمياء تسير في حياتها كما تسير الآلة الميكانيكية ، وقال إن جسم الانسان أيضا آلة كسائر صنوف الحيوان ولو أنه استثنى العقل من هذه الآلية وقال إنه عنصر ممتاز . ثم جاء القرن التاسع عشر ، وهو عصر ازدهرت فيه المادية ووجدت طائفة كبيرة من المشايخ ، على رأسهم دارون وسبنسر وبجنز وهيكل وهكسلي ونيتشيه ، فسار المذهب الطبيعي على أيلهم شوطاً فسيحاً في تدعيم قواعده

زكي نجيب محمود

(يتبع)

أفق زمانه فينفذ بصره إلى القند ، وهنا أخذ يمتس في جو من أحلام ينسجها لنفسه بقوة خياله ، وسرعان ما ألقى في روع نفسه أن هنالك - فوق العالم الذي يرى - قوة سامية سترطه وتأخذ بيده مما يصادفه في حياته من عسر وإشكال ، وتمكنت من نفسه المقيدة بأن تلك القوة العليا ستكون له خير هادٍ ومرشد في طريقه نحو الكمال الذي أخذ يرجوه ويتفنيه بمدان تقضى حياته الحيوانية الأولى ، وتحرر من رق الضرورة واستعبادها تلك كانت نواة المقيدة الدينية التي عملت فيما بعد على تماسك الأفراد وتربطهم في تكوين المجتمع ، إذ أوحى إلى الناس ضرورة احترام العادات والتقاليد التي هي الأساس الأول في بناء المجتمع ، كما خلعت على السلطة المدنية مسحة مقدسة زادت من هيبتها واحترامها ؛ وبدعى أنه لابقاء لمجتمع بشير ساطان معتم مهيب ، وهكذا كان الدين عماداً قوياً في بناء المجتمع أول الأمر كما كان خير مدرب لمشاعر الانسان وعواطفه ، إذ راضها وسقلها وأجراها في سبيل صالح مستقيم ، ولعل هذا هو السبب الذي من أجله كان الدين كنفاً ترعرعت في ظله الفنون الجميلة على اختلافها إبان طفولتها

كل هذه حسنات للدين مشكورة غير منكورة ، ولكن قد يكون هذا الذي عاون الانسان على السير في أول الطريق عائقاً يحول اليوم دون تقدمه ، وقد يكون « فرويد » العالم النفسي الكبير مصيباً في رأيه بأن الدين صالح لتقسيم الأخلاق إبان الطفولة حتى إذا مانضج الانسان كان لزاماً عليه أن يواجه مشكلات الحياة العملية في صرامتها وجددها ، ولا ينبغي أن تطيل الوقوف عند هذه المرحلة الأولى - مرحلة الأحلام الجميلة والآمال الحلوة بأن قوة سامية ستحول بين صدورنا وبين ضربات القدر وسهامه ، فلئن كان الدين قد سام بقسط وافر في تطور الحياة البشرية ورقبها فلقد فرغت رسالته وأصبحت الانسانية اليوم في مرتبة من رشد الكهولة تجعلها في غنى عنه

ويقول أوجست كونت في هذا الصدد إن طريقة تفكير الانسان بإزاء العالم قد سارت منذ نشأتها إلى اليوم في مراحل ثلاث : الأولى هي المرحلة اللاهوتية حيث كانت تُفسر .